

## جراحات تحت شجر البواب



البذلة الخضراء والحمراء هي نفس تلك التي نراها على شاشات التلفزة، والتركيز شديد كما في أي غرفة للعمليات، لكن غياب أجهزة تستخدم التكنولوجيا العالية واضح وضوح الشمس. فالفريق الجراحي المتنقل التابع للجنة الدولية يجري عمليات تنقذ الأرواح تحت ظلال شجرة البواب بمعدات أبسط ما يكون.

## تقول

السيدة «ليزي» بابتسامتها المشرقة المعتادة: «كان اليوم ليلة عيد الميلاد وكنت مكلفة بتزيين مائدة الطعام، عندما تم الاتصال بنا وطلب منا التوجه جوا إلى قريضة لعلاج تسعة مدنيين جرحى. وقد استغرق الأمر كالعادة عشر دقائق لكي نحضر أنفسنا وبضع ساعات لجمع المستندات والتصاريج الرسمية اللازمة وخمساً وعشرين دقيقة للتقلل جوا من نيالا إلى قريضة». والسيدة «ليزي» هي إحدى الممرضتين العالمتين مع الفريق الجراحي التابع للجنة الدولية، وهو مجموعة تتألف من أربعة من العاملين في المجال الطبي يتخذون من مدينة نيالا في جنوب دارفور مقراً لهم. ويتمثل عملهم في السفر جواً إلى مختلف أنحاء السودان وإجراء عمليات للأشخاص المصابين بجروح من جراء القتال.

تقول «ليزي»: «نستطيع إجراء عمليات في كل مكان ما دمنا قادرين على نصب ناموسية. وإذا اضطررنا الظروف، نستطيع وضع ناموسية بين الشاحنتين التابعتين لنا». وسيصعب على الذين اعتادوا على مشاهدة البرامج التلفزيونية التي تعرض غرف عمليات تستخدم فيها تكنولوجيا عالية، تخيل جراح يؤدي عمله تحت شجرة البواب، لكن هذا هو السياق المعتاد لمعظم العمليات التي يجريها الفريق الجراحي الميداني.

إنّ يجول الجراح وطبيب التخدير وممرضتان مختلف أنحاء البلاد مزودين بمعدات قليلة، ويعملون في كثير من الأحيان ساعات طويلة لعلاج الأشخاص العاجزين عن الذهاب إلى المستشفيات أو العيادات أو غير الراغبين في الذهاب إليها. فغظهم يقطن بعيداً جداً عن أقرب مستشفى، وآخرون يتناهبهم الخوف من أن

## تمارا الرفاعي\*

يستهدفهم الطرف الآخر. وأياً كانت الأسباب، فهم يلجأون إلى اللجنة الدولية التماساً للمساعدة. ويشرح الدكتور «تيسفايه» بصوته الخفيض: «كل ما يتعين عليهم القيام به هو الاتصال باللجنة الدولية».

الدكتور «تيسفايه» من إثيوبيا. وهو جراح حرب مخضرم قضى سنوات عدة في إجراء جراحات حرب معقدة في بلده وفي مختلف أنحاء العالم. ويحكي لي عن بناته وحياته في وطنه التي تتخللها مهمات عاجلة في أفغانستان وسيراليون وكومبوديا وأماكن أخرى.

جميع أفراد الفريق الجراحي الميداني أطباء محترفون يعيشون في بلدانهم، لكنهم يقومون، لعدة شهور كل سنة، بمهام تشرف عليها اللجنة الدولية في مناطق تمزقها الحرب. وعندما سألت السيدة «ليزي» كيف ترى الانتقال من كوبنهاغن إلى غرفة عمليات ميدانية في دارفور؟ أجابت قائلة وهي غارقة في التفكير: «أمر خارق للعادة. وأصعب تجربة لي هي المهمة التي أديتها في بيروت في العام 1982. فالعمل على ظهر سفينة مع جرحى حرب يعانون من الصدمة وسط عاصفة في البحر الأبيض المتوسط بدا لي كيوم القيامة. ولازمتني صور هؤلاء الأشخاص لأسابيع بعد عودتي إلى الدنمارك. لقد بدا لي العالم كله مختلفاً». وهي عملت منذ ذلك الحين في عدة مناطق منكوبة أخرى: الحدود الباكستانية والأفغانية عام 1985، والقدس خلال الانتفاضة، واندونيسيا بعد موجات التسونامي

(\*) مسؤولة الإعلام في اللجنة الدولية في السودان

عام 2005، وكشمير في أعقاب زلزال 2005. تجدر الإشارة إلى أن الفريق الجراحي الميداني بدأ عمله عام 2005، وهو يملك طائرته الخاصة التي يمكن أن تنقل نصف طن تقريباً من المعدات الطبية والجراحية. لكن ينبغي على الفريق، قبل نشره، أن يتأكد من أنه سيحظى بالترحيب. إذ يجب على أي مجموعة مسلحة تسيطر على الطريق أو وجهته الأخيرة أن تضمن سلامة الفريق. ويستغرق الأمر عادة يوماً للحصول على هذه الضمانات بعد سلسلة مكثفة من الاتصالات الهاتفية. وبعد ذلك ينتقل الفريق على متن الطائرة متوجهاً إلى أقرب مدينة يوجد فيها مكتب للجنة الدولية. ومن هناك، يستخدم سيارات اللجنة الدولية ويذهب إلى حيث ينتظره المرضى. وثمة شرط آخر للانتشار وهو ضرورة أن يكون هناك على الأقل ثلاثة مصابين بجروح تهدد الحياة، مثل الكسور المفتوحة الناتجة عن إصابات بالرصاص في الأطراف، أو إصابات بأعيرة نارية في الرأس أو البطن أو الصدر. ويقول رئيس الجراحين: «نعالج بطبيعة الحال إصابات أخرى خلال وجودنا هناك. ففقد عالجنا، أثناء مهمتنا الأخيرة، صبياً كسر معصمه عندما سقط من على شجرة».

والمهمات التي يقوم بها أفراد الفريق الجراحي الميداني في مختلف أنحاء العالم مختلفة كثيراً عن الحياة في الوطن بين الأحباب. فهم يقرنونوها بالانتقال من فيلم بالألوان إلى فيلم بالأبيض والأسود. وهي فرصة لعيش حياة بإيقاعات وتواتر مختلفة ولإثراء آفاقهم في ما يتعلق بالعالم الذي يحيط بهم. وحتى عندما يتحدثون إلي في مكتبهم في نيالا، تنتظر السيدة «ليزي» والدكتور «تيسفايه» المكاملة التي ستأخذهم إلى مغامرهم

المقبلة ●